بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء العشرون

سورة النمل

من الآية ٥٦ إلى نهايتها الآية ٩٣

وسورة القصص

وسورة العنكبوت

من بدايتها حتى الآية ٤٥

obeikandl.com

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ(٥٨) ﴾

فإذا بقوم لوط (ﷺ) بدلاً من أن يعودوا إلى رشدهم وإلى فطرتهم الطبيعية، ويخجلوا مما فعلوا ويتقوا الله، بدلاً من كل ذلك، إذا بهم يقررون طرد لوط (ﷺ) وآله لأنهم أناس يتطهرون! وكانت العاقبة أن الله أوحى إلى لوط أن يخرج ليلاً هو وأهله، وأن يترك زوجته لموالاتها للفساق، لأن الله سيمطر البلاد بالحجارة ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ .

* * *

﴿ قُلِ الْحَمْدُ للَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ(٦٦) ﴾

استعرضت آيات القرآن مصائر بعض الأمم التي كفرت بالله ورسله ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد بعد الذي سمعته ﴿ الْحَمْدُ للَّهِ ﴾ على نعمه ﴿ وَسَلاَمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ وسلام على جميع الذين اصطفاهم الله، المرسلين ومن تبعهم بإخلاص إلى يوم الدين، ثم قل للمشركين ما رأيكم بعد الذي تلوته عليكم؛ هل الإيمان بالله وتوحيده خير ﴿ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من عبادة الأصنام؟ ثم تتلو الآيات على المشركين قدرة الله ونعمه عليهم وتسألهم المرة تلو المرة: هل هناك إله من شركائكم له قدرة الله ونعمه عليكم؟ . ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ هي الجبال التي تمنع الأرض

أن تهتز فى دورانها، وقال زغلول النجار عن الحاجز بين البحرين: [أجمع المفسرون ـ قدامى ومعاصرون ـ على أن المقصود بالبحرين هنا هما النهر العذب الفرات والبحر الملح الأجاج، لكن من الواضح أن المقصود بهما الملح ونظيره الملح عندما يختلفان فى صفاتهما الطبيعية والكيميائية، وذلك للمبررات التالية[1]]، وبعد خطاب عقولهم، تخاطب الآية ٦٢ ضمائرهم وقلوبهم ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ فكل البشر يلجأون إلى الله فى حال الاضطرار، فإذا كشف عنهم السوء، عاد كثير منهم إلى الشرك والإلحاد، ثم

---

(١) أولاً: إن لفظة (البحر) فى اللغة العربية تطلق على كلٍّ من البحر الملح، والبحر العذب (أى النهر)، ولكنها إذا أطلقت دون تقييد فإنها تدل على البحر الملح فقط، وإذا قيدت فإنها تدل على ما قيدت به، وقد جاءت لفظة (البحرين) مطلقة فى الحالتين المذكورتين.

ثانيًا: فى وصف لفظة (البحرين) المطلقة جاء فى سورة الرحمن قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

والمرجان حجر من الأحجار شبه الكريمة يؤخذ من هياكل حيوان بحرى لا يحيا إلا فى الماء الملح، أما اللؤلؤ فيستخرج من أصداف حيوانات تحيا فى أىٍّ من الماء الملح أو الماء العذب، ولكن جمعهما معًا يؤكد على أن المقصود بالبحرين هنا هما البحر الملح والبحر الملح (الآخر)، وهو أمر أكبر إعجازا من التقاء النهر العذب بالبحر المالح على أهمية ذلك العظمى، وضرورته القصوى لاستقامة الحياة على الأرض، وعلى ما فيه من إعجاز فى الخلق يعجز البيان عن تصويره.

ثالثا: الإشارة القرآنية الكريمة إلى تعظيم الفاصل بين البحرين العذب والملح بكلٍّ من البرزخ والحجر المحجور، وذلك لوجود الدلتا ومقدماتها وما حولهما من حواجز ترسيبية، بالإضافة إلى الماء الوسطى بين العذب والملح (الماء المويلح أى قليل الملوحة) على حواف الماء العذب عند التقاء الماءين، وفى المقابل الإشارة القرآنية إلى الفاصل بين البحرين (بغير تخصيص) بتعبير البرزخ فقط أو الحاجز فقط وهو الحاجز من الماء الوسطى بين ماءين مختلفين فى صفاتهما الطبيعية والكيميائية كالبحرين الملحين المختلفين أفقيا أو رأسيًا؛ وذلك لأن مثل هذا الحاجز لا يمنع تحرك الكائنات البحرية من كتلة مائية إلى كتلة مائية أخرى مجاورة، إلا إذا تباينت الصفات بينهما تباينًا صارخًا، فهو لا يحجر الكائنات البحرية حجرًا كاملاً، كما أنه يصعب إدراكه على غير المتخصصين حتى فى زمن التقدم العلمى الذى نعيشه.

رابعا: ثبت أن التنوع بين كتل الماء المتجاورة أفقيًا ورأسيًا بين البحار المتجاورة، وفى داخل البحر الواحد من البحار العميقة والمحيطات هو ضرورة من ضرورات التنوع البيئى فى البحار الذى لولاه لتقلصت الحياة البحرية تقلصًا شديدًا. وتتجاور تلك الكتل المائية وتختلط دون امتزاج كامل على الرغم من محاولة التيارات والأمواج البحرية خلط كل كتلتين مائيتين متجاورتين بأنشطتها المختلفة، ولكن كل الذى يحققه ذلك هو تكوين حزام أو جبهة أو برزخ أو حاجز من ماء وسطى فى كل حالة يعمل هذا البرزخ على إبقاء تلك الكتل المائية المتجاورة مفصولة فصلاً كاملاً عن بعضها البعض، وكأن كلاً منها عبارة عن بحر مستقل بذاته. تتباين الكتل المائية المتجاورة فى صفاتها بين البحار المتجاورة وفى البحر الواحد، على الرغم من وجود كتل مائية متجانسة فى صفاتها الطبيعية والكيميائية تغطى مساحات كبيرة من محيطات الأرض وبحارها الكبيرة، فإن قياس عدد من الصفات الطبيعية والكيميائية من مثل كلٍّ من درجات الحرارة ونسبة الملوحة والكثافة ونسبة الأكسجين المذاب فى الماء، قد أثبتت وجود تباين ملحوظ فى تلك الصفات من كتلة إلى أخرى أى من بحر إلى آخر، وحتى فى البحر الواحد. =

تخاطب بقية الآية نزعة التسامى الطيبة فيهم، فالله ﴿يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ وتذكرهم بشهادتهم الأولى وهم فى ظهور آبائهم، ثم تتحدى الآية ٦٤ شركهم: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قل لهم يا محمد بعد كل هذا ﴿لاَ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ لا حيلة لكم فى معرفة الغيب ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا يمكن أن تتنبئوا أو تشعروا متى تبعثون ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ قال الزمخشرى: [فى ﴿ادَّارَكَ﴾ هناك ثنتا عشرة قراءة!] وبناء على ذلك فتحتمل عدة معان: تكامل علمهم بالآخرة، وهو تهكم وإنكار كمن يقول للجاهل: أنت أعلم الناس، ومعنىً ثانيًا: انتهى عجز علمهم بالآخرة، فهم أيضًا لا يعلمون عنها شيئًا، ومعنى آخر قاله البيضاوى: أنهم لا يعلمون الحساب فى الآخرة كما ينبغى أن يعلموه رغم كل هذه الآيات البينات ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ فى الآخرة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ عمى البصائر.

* * *

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ

= ومع تباين تلك الصفات تتباين التجمعات الحياتية فى كلٍّ منها، كما تتباين أنواع الرسوبيات التى تترسب منها، وهذه الحقيقة لم تدرك إلا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى أثناء رحلة باخرة الأبحاث البحرية البريطانية المسماة باسم «رحلة التحدى» (The Challenger Expedition)، والتى تمت فى الفترة من ١٨٧٢ إلى ١٨٧٦م، وأثبتت أبحاثها أن الماء فى بحار ومحيطات الأرض ينقسم إلى عدد من الكتل المتجاورة أفقيًا ورأسيًا، ولما كانت التغيرات الرأسية فى صفات ماء البحار والمحيطات أسرع من التغيرات الأفقية، فإن التمايز الرأسى فى صفات ماء البحار والمحيطات كان دائمًا أوضح من تمايزه الأفقى، وعلى سبيل المثال فإن درجة حرارة الماء عند خط الاستواء تنخفض من ٢٥ درجة مئوية عند مستوى سطح البحر أو المحيط إلى ٥ درجات مئوية على عمق كيلومتر واحد، بينما لا تنخفض أفقيًا إلى الدرجة نفسها إلا على بعد حوالى ٥٠٠٠ كيلو متر شمالاً أو جنوبًا من خط الاستواء. وعلى الرغم من ذلك، فإن التغيرات الأفقية فى الصفات الطبيعية والكيميائية قائمة بالفعل، وبإضافتها إلى التغيرات الرأسية نلاحظ أن الكتل المائية فى البحار والمحيطات تتغير صفاتها فى الأبعاد المكانية الثلاثة، كما تتغير مع الفصول المناخية ومع كلٍّ من الليل والنهار (أى مع الزمن).

طبيعة الحاجز بين البحرين

مع التغير فى الصفات الطبيعية والكيميائية لكتل الماء فإنها تتحرك فى الاتجاهات الرأسية والأفقية، وتختلط، وتتداخل أحيانًا، وتتبادل درجات الحرارة والملوحة، إلا أنها تظل دائمًا مفصولة عن بعضهاالبعض بحواجز غير مرئية بطريقة مباشرة على هيئة حدود من الماء ذى الطبيعة الوسطية.

عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) ﴾

يقول محمد الغزالى: [إن الالحاد مرض، وليس فكرًا، إنه غرور يرتكز على أوهام ولا مكان له فى منطق العقل!! والفلسفة المادية السائدة الآن، إنما تدور على فكرة «إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع»، والتى تولدت عن الوثنيات القديمة. وغريب أن تتحول إلى نظرية علمية تقول: «المادة لا تفنى ولا تستحدث». وفى ظل هذا الخيال تنطلق الأجيال نحو الصفر!! يسود السلوك الحيوانى كل شىء] ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) ﴾ وهكذا يستبعد دائمًا الكفار البعث بعد الموت ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا ﴾ أى سبق أن وعدنا أهل الكتاب بهذه العودة، ونحن نظن هذا الكلام من قصص وخرافات الأمم السابقة ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ قل لهم يا محمد سيروا فى أراضى الأقوام السابقين: عاد وثمود وقوم لوط (ﷺ) وأصحاب الأيكة، واعتبروا، ولا يضيق صدرك من مكرهم ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قل لهم يا محمد لا تستعجلوا حساب الله، فعسى أن يكون ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ اقترب منكم بعض الذى تتعجلونه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ وإن إمهال الله للعاصين من فضله ورحمته لعلهم يستقيمون ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ولا يخفى على الله شىء فى السماء والأرض، وكل فى كتاب مبين.

* * *

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ﴾

يقص القرآن على بنى إسرائيل أكثر الأمور التى اختلفوا فيها[1]، فهو كتاب مصدق لما بين يديه ومهيمن عليه، وهو يهدى المؤمنين للفوز بالدنيا والآخرة، رحمة من رب العالمين، يأمرهم بأحكامه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ واهب العزة ومانعها، العليم بكل أمور الكون، وواهب العلم ومانعه ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ يا محمد وثق بأنه ناصرك لأنك ﴿ عَلَى الْحَقِّ

(١) فهو على سبيل المثال يصحح تصورهم عن الله وعلاقتهم به، ومن ثم يبين لهم أنهم بشر مثل باقى البشر، وأن الناس كلهم لديه سواء، وميزانه الحق يقوم على الإيمان وعمل الصالحات، وليس بالأنساب ولا من=

﴿الْمُبِينِ﴾ والصراط المستقيم، ولا تذهب نفسك حسرات لأنك لا ولن ﴿تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ الذين أماتوا أنفسهم ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ الذين رفضوا الاستماع وقالوا إن فى آذاننا وقر، أى ثقل يمنع السمع ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ الذين أعموا بصائرهم، لأن الذى سيلتفت لكلامك ويصغى لك هم المؤمنون الذى أسلموا وجوههم لله.

***

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)﴾

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا بدأت أحداث الساعة ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ قال مخلوف: [هى من أشراط الساعة الكبرى، والله أعلم بحقيقتها، والدابة لغة: اسم لما دب من الحيوان، مميز وغير مميز (أى إنسان أو غيرإنسان)، تخبرهم ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ المنكرين للبعث ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالآيات المنزَّلة عن عند الله بمجىء الساعة لا محالة ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ بصدقها، وها هى قد أصبحت بأهوالها منهم قاب قوسين أو أدنى] ويوم الحساب يحشر الله من كل أمة جماعة ممن يكذب بآياته، يوقف أوائلهم لتلحقهم أواخرهم فى صفوف ويزجرون ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ واصطفوا مجتمعين قال لهم ربهم ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ ولم تحيطوا بها علما ﴿أَمَّاذَا

= أى رحم جاء أحدهم للدنيا، ويؤكد لهم أن عيسى (ﷺ) هو المسيح الذى كانوا ينتظرونه، وأن أمه عذراء بتول، وأنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، وكذلك، على سبيل المثال، يقول علماء الكتاب المقدس إن له عدة مصادر، وإن أحوال بنى إسرائيل أثرت بشكل كبير على نصوصه، لذلك تجد نصوصًا عديدة تحض على كراهية الأغيار لدرجة الأمر بقتلهم جميعًا رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخًا، حتى بهائمهم، وحرق مدنهم، ومن لا يستطيعون قتله لا يعقدون معه معاهدات، وإذا أقرضوه فبالربا، ثم تجد على نقيض ذلك نصوصًا قليلة تأمر بإكرام الغرباء، أى الأغيار. وأشكلت كثير من مثل تلك النصوص وتناقضاتها على العلماء، فيصحح لهم القرآن تلك التناقضات، ويبين اختلاقاتهم على أنبيائهم، وينفى اختلاقاتهم عليهم، مثل رميهم سليمان (ﷺ) بالكفر، وداود (ﷺ) بالتآمر لقتل جنديه أوريا للزواج من امرأته بعد أن زنا بها، وقولهم على إبراهيم (ﷺ) أنه أبعد هاجر وابنها إسماعيل (ﷺ) بسبب غيرة سارة منها، وينفى عن حواء تهمة غواية آدم، الأمر الذى جعل المرأة رمز الشر والغواية والفتنة فى التراث اليهودى / المسيحى الغربى، ويبين أن المشيئة الإلهية هى جعل البشر خلفاء على الأرض، وأنه سبحانه وتعالى قد غفر لآدم وحواء معصيتهما بالأكل من الشجرة المحرمة، ومن أراد الاستزادة عن الكتاب المقدس يمكنه قراءة *تاريخ الكتاب المقدس* لكارين أرمسترونج.

﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هل كذبتم بآياتى؟ أم لم تعلموا بها؟ أم ماذا كنتم تعملون؟ ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ حق عليهم القول بالعذاب بسبب ظلمهم ﴿فَهُمْ لا يَنطِقُونَ﴾ لأنهم أدركوا أنهم خالفوا الحق ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يدرك الكفار آية الليل الذى خلقته ليسكنوا فيه وآية النهار المضيئة كى يبُعثوا من سكونهم ويكدحوا فيها! وإنما بعثكم بعد موتكم سهل على الله سهولة قيامكم من النوم. إن الذين آمنوا بالله وأيقنوا أنه هو الحق المبين هم الذين اتعظوا واعتبروا.

***

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)﴾

يوم ينفخ الملك فى البوق يوم القيامة، فيرتعد ويرتج ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ استثنى الله بعض خلقه فجعلهم آمنين، فاللهم اجعلنا منهم ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ جميع الخلائق تأتى صاغرة متضرعة ترجو رحمة ربها ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ترى الجبال فتحسبها ثابتة مستقرة، ولكنها تتحرك بيسر وسهولة كما يتحرك السحاب. فمتى يكون ذلك؟ هل هو فى الآخرة أم فى الدنيا؟ الآخرة دار حساب، ليس فيها ابتلاء ولا حاجة لإقناع الناس بآيات الله فى الكون، فقد انتهى كل ذلك فى الدنيا، بالإضافة لأن فى الآخرة لكل امرئ شأن يغنيه، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى فقد ذهلت كل مرضعة عنما أرضعت، ووضعت كل ذات حمل حملها. وجاء فى الحديث: «تحشرون حفاة عراة غرلاً» (غير مختونين)، فقالت امرأة (عائشة): أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة» ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ رواه الترمذى. فماذا يهم الناس أن تمر الجبال مر السحاب؟ ثم إذا بحثنا فى القرآن عما جاء عن الجبال يوم الحساب سنجد: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] ومعناها أن الجبال تختفى وتبرز الأرض ـ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] فهى منسوفة يوم القيامة ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] فهى مدكوكة بالأرض، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤]، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾

[القارعة : ٥] هباءً كالصوف المتناثرة! فهل المقصود أن ذلك فى الحياة الدنيا؟ ولم يبين السياق ذلك بصراحة، لأنه ما كان أحد ليصدق فى ذلك الوقت أن الأرض تدور وأن الجبال تتحرك مثلما يتحرك السحاب ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ من عمل صالحًا فجزاؤه ﴿ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ وهذا من فضل الله، وهؤلاء الصالحون آمنون من الفزع الأكبر يوم القيامة، أما ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أى العمل الذى حرمه الله ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ يكبون ويدفعون على وجوههم فى جهنم، فهذا هو الجزاء العادل لهم.

* * *

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

قل لهم يا محمد: أمرنى ﴿ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ ﴾ بعبادته ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أى حرم انتهاك حرمتها وسفك الدماء والصيد فيها.

قال (ﷺ) يوم فتح مكة:

«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، روى فى الصحاح ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ خلقًا وملكا وتصرفا ومآلا ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فامتثلت لأمر ربى، وأمرنى ربى بتلاوة القرآن كى تسمعوا وتعوا ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ فمن اهتدى عاد عليه هداه بالخير ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ فعليها؛ لأن مهمتى التبليغ والإنذار ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على كل نعمه ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ فى الدنيا فى أنفسكم وفى الكون كله ويستمر ذلك إلى يوم الحساب ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (٣) إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين (٤) ﴾

﴿ طسٓمٓ (١) ﴾ ارجع لشرح الحروف المقطعة إلى أول سورة البقرة ﴿ تلك آيات الكتاب المبين (٢) ﴾ هذه الآيات التى يوحيها الله إليك يا محمد هى القرآن المبين، وفيه سنحكى لك قصة موسى وفرعون بالحق ليتعظ بها المؤمنون ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ تجبر وطغى فى أرض مصر وحلاوة التعبير القرآنى إنه علا فى الأرض، فهو فى الأرض ﴿ وجعل أهلها شيعا ﴾ فرقًا ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ فيذبح ذكورهم وهم بنو إسرائيل ﴿ ويستحيي نساءهم ﴾ تحقيقًا لمصالحه الفاسدة.

* * *

﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (٥) ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (٦) ﴾

ولكن هل يترك رب العالمين هذا القهر أبد الدهر؟.. إن الله يمهل ولا يهمل، لذا أرادت مشيئته العادلة أن يمن ويتفضل على المستضعفين فى الأرض، وهم فى ذلك الوقت بنو

(*) إلا من الآية ٥٢ إلى ٥٥ فمدنية.

إسرائيل ﴿ونَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وراثة الدعوة لله ﴿ونُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ ليدعوا إلى الله، كما أراد الله أن يرى فرعون ووزيره هامان وجنودهما ما كانوا يحذرونه ويتخوفون منه، وهو أن يسقط فرعون.

* * *

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾

أمر فرعون بذبح المواليد الذكور لأن أحد العارفين أخبره أنه سيولد من يذهب بملكه، فأوحى الله إلى أم موسى ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ كيف تستوعب أى أم أن يقال لها ما دمت قد خفت على وليدك الرضيع فألقيه فى الماء! فأكمل الوحى قوله ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فاطمأن قلب الأم وعلمت أن وليدها ينتظره تكليف عظيم من رب العالمين ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ وحملوه إلى زوجة فرعون التى ألقى الله محبة الوليد فى قلبها، لما علمه من صلاحها فقالت عنه ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. هذا هو الطفل الذى سيقلب الموازين حين يشب ويصير عدو فرعون ونظامه وحزنًا لهم، يسقطهم جميعًا، وهذا هو النفع الذى رجته امرأة فرعون المؤمنة الصالحة، التى ضرب الله بها المثل ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١] ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وآل فرعون لا يشعرون.

* * *

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾

صار قلبها خاليا من العقل جزعًا على وليدها وشوقًا إليه، أو كما نقول نحن: طار عقلها ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ حتى كادت تظهر جزعها وشوقها لما بيد آل فرعون لولا أن الله عقل قلبها ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بقول الله ووعده، وخاصة ما جاء فى الآية السابعة. وقالت الأم لأخت موسى أن تقتفى أثره دون أن يشعر أحد، فشاهدت كيف أخذه آل فرعون

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ ألهمنا موسى ألا يلتقم ثدى أى مرضع ، فاقتربت أخته وقالت فى حصافة وبراءة ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ فشرح الله صدورهم للفكرة فاستردته أمه كى ترضعه وتقر عينها به ﴿ وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ولكن أكثر الناس ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

* * *

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾

ولما بلغ موسى (ﷺ) نهاية نموه وكمال عقله ، آتاه الله الحكمة والعلم الذين يتفضل بهما الله على عبيده المحسنين ، وفى أحد الأيام دخل إحدى مدن مصر ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ ﴾ من بنى إسرائيل والآخر ﴿ هَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ والآخر من شيعة معادية لهم ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ ﴾ فضربه فى صدره بجُمْع كفه فقتله من غير قصد فندم موسى وقال متحسراً ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ثم اتجه إلى ربه ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ثم عاهد الله قائلاً ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ بالمغفرة فأعدك ألا ﴿ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ معينًا للمجرمين .

* * *

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(١٩) ﴾

وأصبح موسى (ﷺ) فى المدينة خائفًا يتحسس أن يصل إليه جند فرعون ، وبينما هو كذلك إذا بالرجل الذى استغاث به فى الأمس يعاود الإستغاثة به ، فقال له موسى ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ واضح الغواية ، أوقعتنى فى الظلم بالأمس وها أنت تدعونى إليه مرة أخرى ! ولما هم موسى بضرب عدوهما ، قال له ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ويبدو من السياق أن موسى لم يكن فى

ذلك الوقت على وفاق مع البلاط الفرعونى، وكان يحاول إصلاحه وإصلاح أحوال المصريين.

* * *

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾

وجاء رجل مؤمن من أقصى المدينة يُسرع ليحذر موسى فقال ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ ﴾ وجهاء القوم وكبراءَهم يتشاورون فى قتلك ﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) ﴾ ولما اتجه إلى مدين شمال شرق مصر وشمال الحجاز، دعا ربه أن يهديه إلى الطريق القويم، ولما وصل إلى بئر مدين وجد ناسًا كثيرين يطلبون الماء، ولمح امرأتين ﴿ تَذُودَانِ ﴾ تحميان غنمهما، فرق قلب موسى لهما وقال ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ما شأنكما ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي ﴾ إلا إذا انصرف الرعاة ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ لا طاقة له بهذه المزاحمة ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ ثم انصرف وجلس تحت ظل شجرة قال مناجيًا ربه ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ومن أجدر من موسى (عليه السلام)، الذى صنعه الله على عينه، بهذا الدعاء الفذ.. فهو لم يشك حاله، وإنما يقول لرب العالمين: إنى فقير لخيرك! قاله موسى الذى رفض بلاط فرعون، وهرب لاجئًا إلى مدين، وحيدًا فريدًا إن لم يكن مشردًا، حين لم يكن عنده قوت يومه، ولا مسكنًا يأوى إليه.

* * *

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾

وكما حدث مع نوح (ﷺ) عندما قال لربه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] فجاءه الرد الإلهى الفورى ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤)﴾، جاءت موسى (ﷺ) إحدى الفتاتين تمشى على استحياء لتدعوه لمقابلة أبيها الذى يريد أن يشكره جزاء ما سقى لهما، فلبى الدعوة وذهب إلى الأب وراح يحكى له ما حدث فى مصر، فطمأنه الأب قائلاً ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ثم ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ بعدما رأت من شهامته ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ لكى يرعى أغنامنا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ثم عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه، ولعلمه أن موسى لا يملك شيئا، عرض عليه أن يعمل أجيراً عنده ثمانى سنوات فى مقابل ذلك، فإن امتدت الخدمة لعشر سنوات فهذا تفضل منه ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ ما أريد أن أحملك ما لا تطيق ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وافق موسى على هذا العرض وقال ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ هذا الاتفاق عهد بينى وبينك ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أى مدة من المدتين قضيتها فى العمل عندك ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أى لا تطلب منى أكثر من ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

***

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢)﴾

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ ثمانى حجج أو عشراً، وخرج بأهله، أبصر من ناحية جبل الطور فى سيناء ناراً ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ انظُرُوا﴾ إنى أبصرت ناراً لعلى أعرف منها خبراً أو آتى بشعلة من النار لعلنا نستدفئ بها. فلما وصل موسى إلى النار سمع من ﴿شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ وهى مباركة بسبب ما حدث فيها ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ صوتًا يناديه ﴿أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال سيد قطب: [تلقى موسى النداء المباشر. تلقاه وحيداً فى ذلك الوادى العميق، فى ذلك الليل الساكن. تلقاه يتجاوب به الكون من حوله، وتمتلئ به السماوات والأرضون.. تلقاه لا ندرى كيف وبأية جارحة وعن أى طريق. تلقاه ملء الكون

من حوله، وملء كيانه كله. تلقاه وأطاق تلقيه لأنه صنع على عين الله حتى تهيأ لهذه اللحظة الكبرى]، ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فلما ألقاها اهتزت كأنها ثعبان، فابتعد موسى ولم يعد، فعاد الصوت يقول له ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ثم توالت أوامر الرسالة ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ ضعها فى جيبك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ بيضاء دون عيب ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ ضم ذراعك إلى جانبك ولا ترهب ﴿فَذَانِكَ﴾ مثنى ذاك، والمعنى فهذان ﴿بُرْهَانَانِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

***

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)﴾

قال موسى خائفًا ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ إذا ذهبت إليهم ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ ورَجَا موسى ربه أن يرسل معه فى هذه المهمة الصعبة أخاه هارون لأنه أكثر فصاحة منه ﴿رِدْءًا﴾ عونًا لى يُصَدِّق على كلامى فإنى أخشى أن يكذبون، فطمأنه ربه ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقويك بأخيك، وسنجعل لكما ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة قوية، ولن يصلوا إليكما ولن ويتمكنوا من أذاكما بحولنا وقوتنا ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ فذهب موسى وأخوه هارون صلى الله عليهما وسلم إلى فرعون وبطانته ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ قال القرطبى: [قيل إن هذه الآيات ما احتج به موسى فى إثبات التوحيد من الحجج العقلية، وقيل هى معجزاته] ولا مانع أن يكون المقصود الحجج العقلية والمعجزات معًا، بل هذا هو الأقرب للحدوث، فما المعجزات إلا لتأييد الحجج العقلية ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ما سمعنا بهذه الحجج من قبل، أما فعلته بيدك والعصا فما هو إلا سحر. قال موسى ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ﴾ كفى بالله شهيدا أنه هو الذى أرسلنى بالهدى إليكم، وأنه يجعل عاقبة المؤمنين الجنة، ولن يفلح الظالمون الذين يكفرون بآيات الله البينات.

***

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾

ولكن فرعون قد أصابه جنون التكبر والعظمة، فقال متغطرسًا متماديًا فى جهله وغروره ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ فأنا ربكم الأعلى، وأوقد النار يا هامان على الطين لأعداده لإقامة صرحًا عاليا أصعد عليه لأرى إله موسى، وإنى لأظنه من الكاذبين. فما كان جزاء استكباره هو وجنوده فى الأرض إلا أن استدرجهم رب العالمين فى سعيهم الظالم وراء موسى (ﷺ) ومن اتبعه، وأغرقهم فى الماء ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ قدوة فى الضلال ودعاة ورءوس شرك فى الدنيا، يقدمون الناس على طريق الكفر، يوم القيامة سيُغلبون ويُلقون فى جهنم وبئس المصير ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ آمين يارب العالمين على كل فرعون لعين إلى يوم الدين.

* * *

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ الأمم السابقة ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ التوراة تنير البصيرة ﴿ وَهُدًى ﴾ هداية للناس ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن يسير على هديها ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ الله، ولماذا خلقهم، وماذا عليهم أن يفعلوا، وما كنت يا محمد ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ الطرف الغربى ـ سواء كان جبل الطور عند بعض المفسرين، والوادى عند البعض الآخر ـ من موسى ﴿ إِذْ قَضَيْنَا ﴾ عندما أنزلنا أمرنا على موسى ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ لم تكن يا محمد ممن شهدوا هذه المواقف والأحداث ولكنك تلقيتها من الوحى ﴿ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ ولكن أنشأنا بينك وبين موسى أجيالاً وأجيالاً

طال عليها العمر، وكذلك ﴿مَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيمًا ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب حين ذهب موسى إليها خائفا هاربا من بطش فرعون ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ تعددت أقوال المفسرين، فمنها: لم تكن تقرأ عليهم القصص التى أنزلناها عليك لتتعلم منهم، ومنها لم تكن تنذرهم كما تنذر قومك الآن ولكننا أرسلنا من يقوم بذلك، وقال مخلوف ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ يعود الضمير على أهل مكة، والمعنى أنك تتلو على أهل مكة أحداث مدين التى لم تحضرها، وإنما أتتك بطريق الوحى ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ وما كنت بجوار جبل الطور ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى، ولكنا عرفناك بكل هذه القصص ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ قريش ومن حولها ﴿مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الله، ولماذا خلقهم، وماذا عليهم أن يعملوا ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ حتى إذا أصبناهم بعذاب من عندنا جزاء أعمالهم؛ لا يتحججون فيقولون لو أن ربنا أرسل إلينا رسولا لا تبعنا آياته.

***

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)﴾

ولما أرسلنا إليهم محمدًا وأنزلنا عليه القرآن قالوا: لولا أوتى محمد من المعجزات الحسية كما أوتى موسى مثل تحويل العصا إلى حية تسعى، واليد البيضاء، وبقية المعجزات، ويرد عليهم رب العالمين ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ألم يكفر المكذبون أمثالهم بما أوتى موسى من قبل، وقالوا ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ ساحران تعاونا وكفروا بالاثنين. تعددت أقوال المفسرين فى المقصود بالساحرين، فمنهم من قال موسى وهارون (صلى الله عليهما وسلم)، ومنهم من قال موسى ومحمد (صلى الله عليهما وسلم)، ومنهم من قال التوراة والقرآن. قل لهم يا محمد أحضروا كتابًا سماويًا من عند الله أفضل من التوراة والقرآن فسأتبعه معكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإن لم يستجيبوا لك، فتيقن أنهم فى ضلال مبين يتبعون أهواءهم، وليس هناك أضل ممن تبع أهوائه بغير حجة من الله، و﴿اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ولقد أوصل الله إليهم قوله فى القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيفلحون.

***

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾

شاد القرآن فى مواضع كثيرة بالمؤمنين من أهل الكتاب، وفى مواضع أخرى بالمؤمنين من أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد، وتبين الآية هنا أن أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، وأنهم يدفعون السيئة بالحسنة، وينفقون مما رزقهم الله، أولئك أصحاب الأجر المضاعف، إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالو لأصحاب اللغو ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ لا نريد صحبتكم ولا جدالكم.

* * *

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾

كان (ﷺ) شديد الحرص على إيمان أهله وقومه ـ فقال له الله حتى يهون عليه ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) ﴾، [طه] وقال له ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر: ٨] ـ وفى هذه الآية قال له ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ لأن الله ﴿ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ وأعلم بمن لن يهتدى ولو جئته بكل آية، إلا أن يرى عذاب يوم الحساب ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ وتبين تلك الحجة مدى الخطر الذى كان يعيشه المسلمون: الخوف من أن يتخطفهم الناس من حولهم، إذ لم يكن هناك قانونًا يحمى الأفراد إلا أن يكونوا من قبيلة قوية يُخشى انتقامها، أو يوالون مثل تلك القبيلة القوية. قل لهم يا محمد أو لم يمكن الله لكم ﴿ حَرَمًا آمِنًا ﴾ هو مكة يجلب الله إليها من كل الثمرات منذ دعوة إبراهيم أبى الأنبياء، فإذا آمن أهل مكة فمن يقدر عليهم من العرب؟ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وكم أهلكنا من قرية ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ طغت وتجبرت على نعم الله، ولو مررت عليها فسترى مساكنها خاوية على عروشها إلا فترات عابرة ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ وعادت إلى الله مالك الملك.

* * *

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾

بينت آيات عديدة أن الله لا يهلك قومًا إلا بعد أن يبين لهم وينذرهم ـ فجاء ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥] ـ وتؤكد الآية هنا نفس المعنى: ما كان ربك يهلك قرى العرب قبل أن يبعث فى مكة رسولاً يتلو آياته، ولا يهلك ربك القرى إلا الظالم أهلها. وما متع الدنيا إلا قليلة قصيرة ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أمن يأت آمنًا يوم القيامة له جنات الخلد، أفضل أمن يلهو بمتاع الدنيا، ثم يحضر لعذاب يوم الحساب؟.

* * *

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) ﴾

وفى أحد مشاهد يوم القيامة ينادى الله المشركين ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فأجابه ﴿ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ قال مخلوف: [الذين ثبت عليهم مقتضاه وتحقق، وهو قوله تعالى: ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩، السجدة: ١٣]، ونحوه من آيات الوعيد، والقائلون هم الشياطين، أو رؤساء الكفر الذين اتخذهم أتباعهم شركاء لله بأن أطاعوهم فى كل أمر ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ بطريق الوسوسة والتسويل (تسويل النفس)، لا بالإكراه، فغووا باختيارهم غيًا مثل غينا باختيارنا، فنحن وهم سواء] وقيل لأئمة الكفر ﴿ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ من دون الله لعلهم ينفعونكم فى شىء الآن ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا ﴾ لأن كلاّ منهم يقول نفسى نفسى ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ وعاينوا عذاب جهنم ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ لكان هذا أفضل لهم ولم يكن هذا حالهم. ثم يناديهم ربهم فيقول لهم أرسلت إليكم الأنبياء بالآيات البينات فماذا كان ردكم؟ ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ ﴾

فأصبحوا لا يعرفون ماذا يقولون، ولا حتى يسألوا بعضهم البعض، وذلك فى أحد مشاهد الخاسرين يوم الحساب.

* * *

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٧٠)﴾

إذا ما تاب المشرك وآمن بالله الواحد الأحد وعمل صالحًا ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ قال أكثر المفسرين إن ﴿عَسَىٰ﴾ من الله محققة، وقد أكدت المعنى آيات أخرى ـ مثلما جاء فى سورة الفرقان ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [٧٠] ـ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فله طلاقة القدرة وطلاقة المشيئة ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ قال الوليد بن المغيرة ما ذكرته سورة الزخرف ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ والقريتان هما مكة والطائف، أى لو أنزل الله هذا القرآن على أحد عظماء مكة أو الطائف أو أغنيائها لا تبعناه، فنزلت الآية ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى تنزه سبحانه عمن يشاركه الرأى والاختيار ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الكبر والجحود، والنفاق والكفر البواح ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ يحمده المؤمنون فى الدنيا والآخرة ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ الأمر والنهى، وإليه يرجع الخلق كله.

* * *

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾

هل يستطيع غير الله أن يجعل الليل والنهار متتابعين يخلف أحدهما الآخر إذا أراد الله أن يجعل أيهما دائمًا مستمرًا؟ هل لدى غير الله الرحمة والحكمة والقدرة على أن يجعل لكم ليلاً لتسكنوا فيه، ونهارًا مبصرًا لتسعوا وراء مصالحكم فيه؟

* * *

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾

وحذرهم يا محمد ﴿ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ ربهم يوم القيامة ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ويوم ننزع من كل أمة شهيداً عليها، ونقول للأمم هاتوا حججكم على شرككم، فتاه عنهم ما كانوا يفترون.

* * *

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾

بعد أن ذكرت الآيات السابقة استبداد الحكم ممثلاً في فرعون مصر، جاء الحديث عن استبداد المال ممثلاً في قارون الذي كان من قوم موسى (ﷺ) ﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ ظلمهم وتكبر عليهم بأمواله ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ وهبه الله من الأموال ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ يثقل على مجموعة قوية من الرجال أن تحمل مفاتيح كنوزه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ المقصود بالفرح هنا فرح الغرور والتكبر والطغيان، الذي يلهى عن ذكر الله وحقوقه، وحقوق العباد، ناهيك عن الحمد والشكر ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ ﴾ واطلب فيما آتاك الله من رزق وفير ﴿ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ لا تظن أن المال مالك، وإنما استخلفك الله فيه ليبتليك ماذا ستفعل، فاجعل هذا المال زادك في الآخرة ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ لأن الله يحبُ أن يرى أثر نعمته على عبده ﴿ وَأَحْسِن ﴾ إلى نفسك وإلى الناس في كل أقوالك وأعمالك ﴿ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ولا تسعى للفساد في الأرض بسلطة مالك لأن الله ﴿ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

* * *

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾

قال قارون ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ أى إنها قدراتى وإمكاناتى وذكائى، ذلك قول قارون، وقول كل مغرور فخور ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للثروات والأعوان ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لا يُسألون سؤال استعلام أو استعتاب ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ فى كامل الأبهة ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وسمعهم أهل العلم بحقيقة الدنيا وأنها دار بلاء، وحقيقة الآخرة وأنها دار جزاء وبقاء، فقالوا لهم ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أى إن لم تستفيقوا فالويل لكم ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ والآخرة ﴿لَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ قال محمد الغزالى: [المال ليس فى ذاته شراً ولا خيراً، إنه أداة تُعاب أو تحمد وَفْقَ طريقة استعمالها، فالسلاح فى يد اللص أداة للقتل، وفى يد الجندى أداة للدفاع أو القصاص. إن هناك أغنياء يبذلون ما لديهم بسخاوة نفس ويبحثون عن كل خلة (حاجة) ليسدّوها، ويستقبلون الفقراء بحفاوة، ويعطونهم قبل أن يُسألوا، ويشكرون الله على ما أعطى وأعان، ولا يرون المال سبب استعلاء ولا مصدر تطاول على الآخرين].

***

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)﴾

فخسف الله بقارون وبداره الأرض، ولم ينفعه ماله ولا أعوانه، ولا علمه، ولم يجد من يدفع عنه الخسف وينصره على رب العالمين، وأفاق من تمنى أن يكون له مثل ما أوتى قارون وحسبه ﴿حَظٍّ عَظِيمٍ﴾! وعرف أن الله يبسط رزقه لمن يشاء، ويمسكه عمن يشاء، وقال: لولا أن من الله علينا لخسف بنا الأرض، وعرف أنه لا يفلح الكافرون ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الجنة ونعيمها خصصها الله للمتواضعين المخبتين، الذين يخفضون أجنحتهم لعباد الله الذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا يريدون فساداً، والخاتمة الطيبة فى الآخرة هى جزاء المتقين، ومن فضل الله على عباده أن من جاء بالحسنة فله خير مما جاء به، إلى سبعمائة ضعف ويزيد ـ كما

جاء فى سورة البقرة ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[٢٦١]ـ وأما ﴿مَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

***

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾

إن الله الذى فرض عليك إبلاغ القرآن للعالمين، والعمل بما فيه ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يوم البعث والحساب، والمقام المحمود، أو إلى مكة التى أخرجوك منها، والقول الأول أرجح، والله أعلم. قل لهم يامحمد إن ربك أعلم بمن جاء بالهدى، ومن يعيش فى ضلال مبين، وما كنت ﴿تَرْجُو﴾ أن يُنزل كتاب عليك لتبلغه للناس، ولكن أنزله الله رحمة للعالمين ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ والخطاب من هنا موجه لمحمد (ﷺ) وللمسلين ولكل من تصلهم آيات القرآن، ولا يصدك أحد عن اتباع ما أنزله الله إليك ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ والخطاب للمسلمين ولكل من تصلهم آيات القرآن المبين، ولا تدعوا مع الله إلهًا آخر ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة. الإيمان قول يصدقه عمل، فلا يكفى أن يقول الناس آمنا، والعمل يظهر من الاختبار بالفتن، والناس يُفتنون كما فتن الله الذين من قبلهم، ليظهر الصادقون ويظهر الكاذبون فى علم الوقوع والشهادة، بعد أن كان ذلك فى علم الغيب الذى لا يعرفه إلا الله ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أن يفلتوا من عقابنا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

* * *

﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

(*) إلا الإحدى عشرة آية الأولى فمدنية.

من أحب لقاء الله وعمل له فى الدنيا فسيلقى الله يوم البعث والحساب، والله سميع عليم بمن أحب لقاءه ومن كرهه، وجاء فى الحديث «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» رواه الترمذى ﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لحسابها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ليس فى حاجة للبشر ولا لأعمالهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ سيغفر الله ذنوبهم ويجزيهم ﴿أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)﴾

أمر الله ﴿الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ـ وجاء فى سورة الإسراء ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾، وحتى ﴿إِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا﴾ ولكن ﴿صَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] ـ وقد روى أن سعد بن أبى وقاص (رضي الله عنه) حين أسلم قالت له أمه: يا سعد بلغنى أنك صبأت؛ فوالله لا يظلنى سقف بيت، وإن الطعام والشراب حرام علىَّ حتى تكفر بمحمد، وكان سعد أحب ولدها إليها، ولكنه رفض طلبها، وبقيت ثلاثة أيام كذلك، فجاء سعد إلى رسول الله (ﷺ) وشكا إليه، فأمره رسول الله (ﷺ) أن يترضاها بالإحسان إليها ـ ثم إلى الله مرجع البشر جميعًا فيجازيهم على ما كانوا يعملون ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ هؤلاء من يقولون آمنا بألسنتهم فإذا ما أصابهم أذى من الناس، جزعوا وفزعوا، كأن إيذاء الناس كعذاب الآخرة، أما إذا انتصر المسلمون وغنموا فإن هؤلاء المنافقين يأتون طالبين نصيبهم فى الغنيمة ﴿أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

* * *

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴾ اتبعونا فى أسلوب حياتنا وما نفعله فيها؛ فسنحمل عنكم خطاياكم وأوزاركم يوم القيامة، فقال الله ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ وسوف يحملون أوزار أنفسهم مع أوزار وخطايا من تسببوا فى ضلالهم، لا ينقص ذلك الحمل من أوزارهم شيئًا. وفى الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا» رواه مسلم ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ وهو سؤال تقرير بكذبهم وسوء عاقبتهم وليس سؤال استعلام.

* * *

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾

يذكر الله قصة نوح (عليه السلام) وكيف بذل الجهد الجهيد يدعو قومه إلى التوحيد ليلاً ونهارًا على مدى تسعمائة وخمسين سنة، فلم يؤمن منهم إلا القليل، ولقد أمر الله نوحًا أن يبنى سفينة النجاة التى حملها بالمؤمنين وأزواج الحيوانات، وكان الطوفان الذى أغرق قوم نوح ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ لأنفسهم بالكفر، وأنجى الله نوحا ومن فى السفينة وجعل الله ذلك آية وعبرة للناس جميعًا. وقد ذكر الله هذه القصة ليثبت قلوب المؤمنين الذين يتعرضون لكل أنواع المحن.

* * *

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) ﴾

وها هو إبراهيم (عليه السلام) ينصح قومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ فلا تشركوا ولا تعصوا ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فما تعبدونه من دون الله أوثانٌ تصنعونها بأيديكم وما تصنعونه ليس إلا ﴿ إِفْكًا ﴾ زيفًا، وهى لا تستطيع أن ترزقكم ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ

﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ واذكروا أنكم عائدون إليه بالموت والبعث ليوم الحساب ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ ما أدعوكم إليه ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ رُسُلهم، وما مهمة الرسول فى قومه إلا البلاغ وليس عليه إتمام المقاصد.

***

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾

تخاطب الآيات من يرفض البعث والحساب يوم القيامة، فتقول الآيات لهم ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ألم يروا كيف تحيا الأرض بعد موتها بسقوط الأمطار، وتموت بامتناع الأمطار؟ ألم يروا كيف يموتون عندما ينامون، ثم يحيون عندما يستيقظون؟ ألم يروا كيف تستمر الحياة فى أولادهم وأحفادهم وكيف يموت أباؤهم وأجدادهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وهو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ فى الدنيا والآخرة وفقا لموازينه وحكمته ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ يوم القيامة ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ما أنتم بفائتين من عذاب الله بالهرب فى الأرض أو فى السماء ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ من ينصركم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فى الكون وفى أنفسهم ﴿وَلِقَائِهِ﴾ وكذبوا بلقائه ﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ سواء كان ذلك لرضاهم بحياتهم الدنيا وتفضيلهم لها عما لدى الله فى الآخرة من رحمة ومغفرة وفضل وثواب، أو لأنهم، فى حظهم القليل فى الدنيا، أغلقوا بأنفسهم باب رحمة الله، ورفضوا الاقتناع بأن الدنيا دار ابتلاء والآخرة دار الجزاء.

***

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾

ومثل كثير من المستبدين الجاهلين، الذين يرفضون الحوار بالعقل والمنطق اللذين يفتقدونهما، إذا بهم يطالبون بقتله أو حرقه، وبالفعل ألقوا به فى النار التى أشعلوها، ولكن ربه أنجاه من النار حين قال ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فخرج إبراهيم (ﷺ) سالمًا أمام القوم فى آية للمؤمنين، ثم قال لهم إبراهيم ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بدأت عبادة الأوثان بتكريم الناس لبعض الصالحين، ومع مرور الأجيال عبدوهم كآلهة تعصبًا وجهلاً، واستمر ذلك حتى اليوم فى عدد من الديانات، والمودة هى فى تقارب وتواد من يرفعون شأن الصالحين حتى يعبدونهم، فهم جماعة واحدة أو طائفة واحدة، وقد تجامل الجماعات أو الطوائف بعضها البعض بتبادل تكريم وتمجيد آلهتها بعضها البعض، وقد تتعادى وتقاتل بعضها البعض لتثبت كل منها أن إلهها هو الأقوى، ولكن فى يوم القيامة ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ ومصيركم جميعًا إلى النار ولن تجدوا نصيرًا.

***

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

أجاب لوط (ﷺ) دعوة إبراهيم (ﷺ)، وحين يئس إبراهيم (ﷺ) من قومه ﴿ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ فهجر قومه فرارًا بدينه إلى ربه ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فأكرمه الله بأن وهب له إسحاق من زوجته سارة بعد يأس من الإنجاب ثم أكرمه بحفيده يعقوب (صلى الله عليهما وسلم) ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ ﴾ فجاء الأنبياء من نسله ـ موسى وداود وعيسى بن مريم ومحمد ـ صلى الله وسلم عليهم أجمعين ـ ﴿ وَالْكِتَابَ ﴾ وكذلك نزلت الكتب السماوية للأنبياء التوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن عليهم ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ بذرية الأنبياء والصلاة عليه إلى آخر الدهر ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فقد أتاه الله من فضله فى الدنيا والآخرة. وقال لوط لقومه مستنكرًا ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ وهذا شذوذ كرهه رب العالمين، ترفضه وتشمئز منه الفطرة السليمة ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ تقطعون الطريق لنهب أموال الناس، أو لتجبروهم على

الفاحشة ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ ما ينكره الدين والفطرة السليمة ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فاتجه لوط إلى ربه داعيا ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

* * *

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) ﴾

أرسل الله ملائكته إلى إبراهيم (ﷺ) ﴿ بِالْبُشْرَى ﴾ بأن زوجته سارة ستنجب إسحاق (ﷺ) وأنهم سيهلكون قرية لوط ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ وفزع إبراهيم (ﷺ) من الخبر قائلاً ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ وطمأنته الملائكة ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الهالكين ؛ لأنها كانت تؤازر قوم لوط على أفعالهم . فذهب الملائكة إلى لوط (ﷺ) فلما وقع بصره عليهم فى صورتهم المشرقة خاف من طمع قومه فيهم ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ وأحست الملائكة مدى الحرج الذى يعانيه لوط فقالت له مطمئنة ﴿ لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الهالكين ، وإننا مرسلون من قبل الله لإنزال العذاب ﴿ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ بسبب فسقهم ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

* * *

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) ﴾

وأرسل الله إلى مدين شمال الحجاز شعيبا (ﷺ) يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد والعمل للقائه يوم الحساب ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ لأنهم كانوا يطففون فى الكيل والميزان ، ويبخسون الناس حقوقهم ، ولكن قومه كذبوه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أى الهزة القوية زلزلتهم فظلوا ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ ميتين قعوداً على ركبهم ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ﴾ الذين كذبوا رسوليهما

هود وصالح (صلى الله عليهما وسلم)، يرى المسافرون أثر تدمير مساكنهم، فقد أغراهم الشيطان عن سبيل الله ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ رغم أنهم كانوا عقلاء قادرين على التدبر.

***

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾

وقارون الذى استكبر بماله، وفرعون الذى استكبر بملكه، وهامان الذى استكبر بوزارته لفرعون، جحدوا ما جاءهم به موسى (ﷺ) من الآيات البينات ﴿ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ وليس بمقدورهم أن يفلتوا من عقاب الله الأليم ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ بمقدار كفره وظلمه ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ وهم قوم لوط، أرسل الله عليهم ريحًا عاتية تُسقط عليهم الحصى فأهلكتهم ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ كعاد وثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ كقارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ فى اليم وهو فرعون وجنوده ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ فهو لا يظلم مثقال ذرة، ولكنهم ظلموا أنفسهم.

***

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾

الذين يتخذون أولياء غير الله، كمثل العنكبوت فى اتخاذها بيتًا، وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون، فهو لا يقى من حر ولا من برد، ولا يستر ولا يحمى، فأى بيت هذا! وقال زغلول النجار: [إن بيت العنكبوت من الناحية المعنوية هو أوهن بيت على الإطلاق؛ لأنه بيت محروم من معانى المودة والرحمة التى يقوم على أساسها كل بيت سعيد؛ وذلك لأن الأنثى فى بعض أنواع العنكبوت تقضى على ذكرها بمجرد إتمام عملية الإخصاب، وذلك بقتله وافتراس جسده؛ لأنها أكبر حجما وأكثر شراسة منه، وفى بعض الحالات تلتهم الأنثى صغارها دون أدنى رحمة، وفى بعض الأنواع تموت الأنثى بعد إتمام إخصاب بيضها الذى عادة ما تحتضنه فى كيس من الحرير، وعندما يفقس البيض تخرج الصغار (Spider Lings) فتجد نفسها فى مكان شديد الازدحام داخل كيس البيض، فيبدأ الإخوة الأشقاء فى

الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلهما معا، فيقتل الأخ أخاه وأخته، وتقتل الأخت أختها وأخاها، حتى تنتهى المعركة ببقاء عدد قليل من العنيكبات التى تنسلخ من جلدها، وتمزق جدار كيس البيض لتخرج الواحدة تلو الأخرى، والواحد تلو الآخر بذكريات تعيسة، لينتشر الجميع فى البيئة المحيطة، وتبدأ كل أنثى فى بناء بيتها، ويهلك فى الطريق إلى ذلك من يهلك من هذه العنيكبات.

ويكرر من ينجو منها المآساة نفسها التى تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت شراسة ووحشية، وانعداما لأواصر القربى، ومن هنا ضرب الله (تعالى) به المثل فى الوهن والضعف لافتقاره إلى أبسط معانى التراحم بين الزوج وزوجه، والأم وصغارها، والأخ وشقيقه وشقيقته، والأخت وأختها وأخيها..] والله يعلم ما يدعون من دونه، علنًا وسرًا، ويضرب الله الأمثال للناس وما يتدبرها إلامن يعلمون أنه الحق من ربهم.

***

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾

خلق الله السماوات والأرض بالحق الذى يقود لذكر الله، ثم تأمر الآية محمدًا (ﷺ): اتل على الناس ما أوحاه الله إليك، وأقم الصلاة، فالصلاة تنهى الناس عن الفحشاء والمنكر. عن ابن عباس: من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزد بصلاته من الله إلا بعدًا. وفى الصلاة ذكر الله، الذى هو أكبر من ذلك، وذكر الله هو أن تتوجه إليه سبحانه وتعالى بكل عقلك وقلبك ومداركك وجوارحك، تطلب رضاه، وتهرب من غضبه فى كل قول وعمل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.